هل ستصبح معاناة العراقيين كالمعاناة الفلسطينية

ورقة سياسية بيد "الاصولية العروبية" ؟

ان هناك شعوراً بالخيبة الى حد المرارة بين معظم العراقيين -في الداخل والخارج وحتى العروبيين منهم- من "الاصولية العروبية" التي انحازت لنظام الاستبداد في العراق باسم "محاربة الاستعمار" و "تحرير فلسطين" دون محاولة فهم، دع عنك الدفاع، عن حق الشعب العراقي بالحرية والكرامة، وهي بذلك تؤكد عدم استفادتها من تجارب القرن الماضي ومآسيه.

ان التيار القومي العربي كما تمثل بالرواد الاوائل (فارس الخوري، رياض الصلح، عبد الرحمن عزام) كان له فضل بناء الدولة العربية الحديثة، فنشأة الدولة العراقية ارتبط بالتيار القومي العربي، متمثلا بالملك فيصل الاول الذي دشن في عهده اول برلمان عراقي عام 1925، الذي لايزال الاكثر حرية وتمثيلا في تاريخ العراق الحديث. كما استطاع قادة العراق بزعامة الرواد الاوائل للتيار القومي اقامة علاقات سليمة مع دول الجوار والعالم وبناء دولة حديثة من موارد ضئيلة. ولا تزال دول شمال افريقيا تذكر لأولئك الرواد العراقيين فضلهم في المساعدة على استقلال دولهم.

ولكن "العروبية" الحديثة جعلت من رواد التيار القومي العربي خصوماً باسم محاربة الاستعمار وتحرير فلسطين، كما بررت العنف والانقلابات العسكرية باسم "الثورية".

ان هذا التيار العروبي المتطرف هو الذي ساهم في اسقاط النظام الملكي في العراق، والذي سرعان ما تصدى لاسقاط حكم عبد الكريم قاسم والتأمر عليه لا من اجل الديمقراطية وحقوق الانسان ولكن باسم تحقيق "الوحدة الفورية" بين العراق ومصر وسوريا.

ولكن الاحداث اثبتت ان استلام قادة هذا التيار للحكم في كل من سوريا والعراق كان افضل طريق لمنع قيام الوحدة العربية، في حين استطاع عرب الاعتدال تحقيق وحدة معظم الجزيرة العربية بقيام المملكة العربية السعودية، وفيما بعد قيام دولة الامارات العربية المتحدة، ومن المفارقات ان نظام البعث العراقي الحالي هاجم قيام اتحاد الامارات باعتباره مشروعا "بريطانيا".

واذا ما فشل الرواد القوميون الاوائل في استرجاع كامل فلسطين، فان العروبيين الجدد خسروا كل فلسطين عام 1967.

ان هزائم هذا التيار كانت بمثابة مدرسة سياسية استفاد منها بعض تلامذتها قبل خصومها، فقد استفادت معظم الحركات الفلسطينية من دروس المراجعة عندما رفضت ان تكون قضيتهم ورقة سياسية بيد حكام طغاة لتبرير استبدادهم على شعوبهم، في وقت تسلح عدوهم الاسرائيلي بالديمقراطية في تكريس وجوده.

ودفع البعض من رموز التيار القومي حياته ثمنا لهذا الدرس كما حصل للقائد البعثي منيف الرزاز وغيره من البعثيين الاوائل في العراق امثال فؤاد الركابي وعدنان الحمداني وغانم عبد الجليل وعبد الخالق السامرائي وغيرهم.

المشكلة هي في "الاصولية العروبية" التي لم تهضم هذه الدروس ولاتزال تتعامل مع العالم العربي وكأنه يعيش الخمسينات، وليس غريبا عندما اطلق البعض على رموز هذا التيار صفة "الداينوصورات".

ان الوطنية هي في ما يقدم من خدمة للشعب، وليست الشعارات ومعارك "طواحين الهواء"، او تسديد فواتير الفشل على حساب الاخرين، و على احسن حال الدعوة للشهادة بالمجان. فبعد ان فشل دعاة الحرب في استرجاع الحق الفلسطيني نجح دعاة السلام في استرجاع ما خسره الاخرون في حروب فاشلة، وقد لا يكون هذا كافياً بالنسبة للكثيرين ولكنه يمثل على الاقل انجازا يمكن البناء عليه وتحسينه لا العمل على هدمه كما جاء في البيان الختامي "للمؤتمر القومي العربي" الذي انعقد مؤخرا في الجزائر. بقوله:

" تدارس المؤتمر حال الصراع العربي-الصهيوني، التي تثبت كل يوم فعالية ونجاعة منطق المقاومة وارتباك وتعثر وفساد منطق المساومة، مما اكد سلامة نظرته المبدئية الى هذا الصراع الوجودي، وصوابية رفضه لكل التسويات المطروحة".

هكذا وبكل بساطة يرفض اولئك المجتمعون في الجزائر كل "التسويات المطروحة"، التي شاركت فيها الدول العربية، بما فيها منظمة التحرير الفلسطينية ومصر والاردن وسوريا، والتي بموجبها استعادت مصر سيناء واسترجعت السلطة الفلسطينية اكثر من 40% من الاراضي الفلسطينية المحتلة عام 1967.

وعندما تعلن "الاصولية العروبية" ان صراعنا مع اسرائيل هو "صراع وجودي" - اما نحن او هم - ثم تطالب في ذات البيان في "اقامة الدولة الوطنية على كامل التراب الفلسطيني"، تلغي اي مساحة للتعايش السلمي او اي صيغة للسلام مهما كان شكلها، وهذا بمثابة دعوة لاسرائيل باعادة احتلال سيناء والغاء السلطة الفلسطينية بما يعيد بناء دولة اسرائيل الكبرى. ان هذا الخطاب غير المسؤول هو دعوة للانتحار القومي في ظل الموازين الاقليمية والدولية.

ان الدماء والتجارب المرة اقنعت الغالبية العظمى من الفلسطينيين، بان الحل لمآسيهم يكمن في تعايش الفلسطيني واليهودي في ظل دولتين واحدة فلسطينية واخرى يهودية. وبدلا من ان تحترم "الاصولية العروبية" ارادة الشعب الفلسطيني كما تجسدت في قياداتهم المنتخبة او تطالب باعطاء الحرية لهذا الشعب في اختيار ممثليه، تمنح نفسها حق الوصاية حالها حال اي فكر شمولي.

وتكرس "الاصولية العروبية" انحيازها للنهج الشمولي في دعمها لنظام صدام حسين عند تناولها الشأن العراقي. ففي الوقت الذي يطالب البيان بمعالجة "الجذور الفعلية للمشكلة الرئسية (الفلسطينية)" وليس مجرد اثار العدوان عام 1967. يرفض كتّاب البيان استخدام ذات المعيار في معالجة الشأن العراقي.

ان جذور المأساة العراقية بنظر معظم العراقيين هو النظام الحاكم (البعض منهم يعتقد بان امريكا وراء بقائه)، وان في زواله تزول الكثير من المآسي، ومنها الحصار.

فالبيان يتحدث عن "المعاناة الرهيبة التي يعيشها شعبنا في العراق جراء الحصار الامبريالي الاجرامي المفروض . "، وليس على هذا اي اعتراض، ولكنها كلمة حق يراد بها باطل.

ان بامكان حكومة بغداد تسهيل عملية رفع الحظر عن طريق التعاون مع الامم المتحدة، ولكن يبدو ان النظام العراقي مستفيد من بقاء الحصار الذي كرس هيمنة الحاكم على الشعب المغلوب، وجعل من "الحصار" شماعته لتبرير رفض اي اصلاح او مراجعة، وحّول الحظر الى اداة لكسب العطف الشعبي الخارجي كما يتجلى بوضوح في مقولات "المؤتمر القومي العربي"، الذي اخذ يكرر مقولات النظام العراقي بالمطالبة حتى برفض القرار 1284 الداعي الى تعليق الحظر بمجرد تعاون بغداد مع لجنة جديدة للتفتيش عن الاسلحة برئاسة السويدي بليكس.

ذهب البرلمان الاوروبي في منتصف نيسان 2000، الى اعتماد قرار بغالبية كبيرة بتأييد رفع الحظر عن العراق "فورا" في حال وافق الاخير على التعاون في تنفيذ قرارات الامم المتحدة. وكان رد طارق عزيز واضحا وصريحا: اذا خيرنا بين عودة لجان التفتيش وعدم رفع الحصار فاننا نفضل الاخير.

يتغافل بيان الجزائر عن قصد، ذكر مسؤولية النظام في ما وصل اليه العراق، لا بل يذهب الى حد التبرير عندما لا ينتقد او يدعو او حتى يتمنى على النظام المراجعة او الاصلاح، ويطالب بالمقابل الدول العربية بسلسلة اجراءات لصالح النظام العراقي.

هل ان مجلس الامن فجأة وبغير سبب اصدر قرارات الحظر الاقتصادي؟ وهل كانت هذه القرارات ستصدر لو استجاب نظام صدام بالانسحاب من الكويت كما طالب كل العرب والمسلمين؟ وهل ان القوات الامريكية والبريطانية والفرنسية شنت هجومها على العراق مطلع عام 1991 دون سبب ام لان قوات صدام حسين احتلت دولة عربية مستقلة اسمها الكويت؟ (ليس في البيان اي ذكر للكويت او احتلالها)، ومرة اخرى هل كان لهذه القوات ان تجتمع على ارض عربية وتشارك فيها معظم الدول العربية لو ان صدام حسين استجاب لرغبة العرب بالانسحاب من الكويت؟

واخيرا وليس اخرا، يطالب البيان بالاخلاء "الفوري" للقواعد الاجنبية في الخليج، وهنا اتساءل: لماذا لم تكن قبل غزو الكويت اي قاعدة امريكية او بريطانية في السعودية او الكويت او الامارات. ان من شن العدوان على

هذه الدول هو نظام صدام حسين (العربي) ومن دافع عنها هو الاجنبي.

ويذهب دهاقنة البيان الى المطالبة بقيام "تحالف استراتيجي سوري-عراقي-ايراني"، دون النظر الى جذور الخلاف. فالبيان لا يريد ان يذكر احدا بالحرب التي شنها نظام صدام حسين على ايران ودامت ثماني سنوات، ولا بمجزرة 1979 التي صفت معظم القيادة القطرية لحزب البعث بحجة مطالبتهم بالوحدة مع سوريا.

ان مقومات التحالف الايراني السوري العراقي قائمة اذا ما توفر شرط واحد، الا وهو تغيير النظام القائم في العراق، وتمتع الشعب العراقي بشيء معقول من الحرية في اختيار حكامه، وليس على طريقة انتخاب عدي صدام حسين بنسبة 99،99 نائبا وبالاجماع "نقيب القرن" للصحافيين العراقيين.

ان رفضنا للحظر الاقتصادي وللهيمنة الاجنبية التي ساهمت سياسات النظام العراقي بتكريسهما، يجب ان لا تبرر استمرار الاستبداد في العراق بل تملي علينا مسؤولية تقويمها. فالبيان يقول في مقدمته: "العربي هو غاية العروبة، ووسيلتها في آن، وهو لن يكون بعد الان، ومع القرن الجديد، وقود حرائق تشعلها بلا ضمير جهات وفئات ومصالح وضغائن ونعرات وعصبيات". .

نعم الانسان العراقي كان ولا يزال وقودا لحروب اشعلها صدام حسين، تارة بدعم امريكا ضد ايران، واخرى طحنت الشعب العراقي بدعم امريكا وتركت الجاني في الحكم.

ان بيان المؤتمر القومي العربي الاخير هو خطوة متراجعة عن بيانات مؤتمره السابق المنعقد في بيروت، اذار 1999 الذي:

> (حيا صمود الشعب العراقي العظيم وحقه الشرعي في رفع الحصار ووقف العدوان وفي قيام نظام ديمقراطي مبني على التعددية السياسية، وشدد على اهمية اتخاذ اجراءات تحقق الانفراج الديمقراطي داخل العراق، واطلاق حركة حوار بين الحكومة والقوى الفاعلة والحية، من عرب وكرد، بما يعزز الوحدة الوطنية ويقطع الطريق على مؤامرة التقسيم والتفتيت الامريكية الصهيونية).

كما تراجع بيان الجزائر عن ما سبق وان اعلنته الامانة العامة للمؤتمر القومي العربي بتاريخ 16 ايار 1999 والذي دعا:

(القيادة العراقية للانفتاح الجاد والديمقراطي ازاء كل القوى والفعاليات والشخصيات الوطنية العراقية والديمقراطية المعروفة بمواقفها المعادية للعدوان والحصار والتقسيم، والمتميزة عن تلك المعارضة المشبوهة والمرتبطة بالاجهزة الغربية . . كما تؤكد الامانة ترحيبها بأي حل سليم ديمقراطي للقضية الكردية بما يحقق الاحترام الكامل للحقوق القومية للأكراد في اطار وحدة العراق وعبر انجاز تحول ديمقراطي جاد يشكل تعزيزا للتماسك الوطني داخل العراق . .)

هل وراء هذا التراجع قناعة بان انتخابات "المجلس الوطني العراقي" الاخيرة ، والاعلان عن قرب تشكيل احزاب "رديفة" قد حققتا ما سبق وان طالبوا به من تعددية وديمقراطية؟ ام ان هذا التراجع نتيجة لقناعة متأخرة بان محاربة "الامبريالية" لا تسمح بـ "ترف" المطالبة بالديمقراطية والتعددية؟.

ان العديد من الاسماء المشاركة في "المؤتمر القومي العربي"- وعن معرفة شخصية- هي ديمقراطية ومعارضة لنظام القهر القائم في بغداد، ولكن يبدو ان طقوس هذه المؤتمرات وكهنته لم تترك مجالا لتسجيل الرأي المخالف في البيانات الصادرة عن المؤتمر.

فقد كتب محمد عبد الحكم دياب المشارك المصري في "المؤتمر القومي العربي" (القدس العربي 15/4/2000):

"رغم تعاطف الجميع مع قضية الحصار المفروض على العراق الا ان تناولها كان تناولا اقرب الى التناول الحزبي منه الى التناول القومي الشامل. ظهرت قضية الحصار منتزعة من سياقها، وكأنها المصيبة الواحدة والوحيدة التي حلت وتحل بالوطن العربي".

ان خير من يرد على تعصب "الاصولية العروبية" هو تيار قومي عربي عقلاني مستنير محب للسلام وللانسان.

(الملف العراقي، العدد 101، آيار 2000)